


المنظومة
ALMANDUMAH

المجاعات المفتعلة **

إيف لاكوست

ترجمة: ذ. محمد حيدة*

راج الحديث كثيرا ، في الأوقات الأخيرة ، عن المجاعة والجفاف بسبب الأحداث الدرامية التي عاشتها إثيوبيا،وما خلفته من أصداء في وسائل الإعلام الأوربية والأمريكية الشمالية. فقد عرضت القنوات التلفزية والصحف أراضي خالية وأشجار مومياثية وأشباح مؤثرة لرجال ونساء جياع ووجوه أطفال صغار محتضرة.

أثارت هذه الصور تعليقات وافرة في الصحف . فقد رأى فيها البعض تغيرا في المناخ واكتساحا حتميا للصحراء ، بينما رأى البعض الآخر أن الأمر لايتعلق فقط بإفريقيا وبعامل المناخ وحده بل أساسا بـ "التوزيع اللامتكافىء" وبمجموع العالم الثالث.

أما منظمات الغوث ومحاربة الجوع ، سواء تعلق الأمر بالمؤسسات غير الحكومية أو الدولية ، كمنظمة الأغذية والزراعة، فتحاول ، وبشدة ،إسماع صوتها والزيادة في دعمها المادي ، لكنها تدخل في مزايدات حقيقية حول عدد الضحايا المصرح بها : 10 ملايين ، 20 مليونا ، 50 مليونا من ضحايا الجوع سنويا!

وبالنظر إلى هذه التقديرات القياسية ، يتحفظ الديموغرافيون بقوة ، ويلاحظون برصانة أن الخمسين مليونا من : موتى الجوع" التي يرجحها البرلماني الإيطالي المتطرف ماركو بانيلا في نداء موقع سنة 1982 من طرف ثلاثين شخصية حاملة لجائزة نوبل ، تمثل في الواقع مجموع الوفيات ، بما في ذلك الهرم والأمراض والحوادث ، والذي قد ينطبق منطقيا على العالم بأسره .

نعرف،بالفعل ، أن العالم الثالث يشهد منذ ثلاثين سنة تزايدا ديموغرافيا سريعا جدا، بسبب التقلص الهائل في نسب الوفايات والارتفاع الشديد لنسب الولادات والخمود التقريبي والشامل للمجاعات والأوبئة العظمى.

---

* أستاذ باحث بكلية الآداب القنيطرة

* - Yves LACOSTE , Des famines qui ne tombent pas du ciel, Hérodote , n° 39 , 1985 , p p : 3 - 5.

علينا أن لانخلط بين المجاعة وسوء التغذية. فبينما تمثل هذه الأخيرة ، ذات العواقب الوخيمة، ظواهر مزمنة ودائمة ، وتشكل مع الأسف جزءا لايتجزء من الحياة اليومية ، تظل المجاعة الحقيقية حدثا دراميا ذا اتساع إقليمي أو وطني. فهي تثير مظاهر الرعب وتترسخ بوساوسها في الذاكرة الجماعية. وعليه ، تتميز المجاعة، بالمفهوم الدقيق للكلمة ، بتصاعد مهول وعنيف لعدد الوفيات في إقليم ما،وأيضا بكونها ناتجة وعلى نحو مباشر عن عدم الإقتتات فعليا لأيام عديدة. علينا كذلك التمييز بين المجاعة والقحط . فهذا الأخير يمثل فترة خصاص حادة ، غالبا ماتكون موسمية ، خصوصا في مرحلة "الالتحام" ، وهو بذلك لايتسبب في مذبحة جماعية ، ولكن في الزيادة من خطورة سوء التغذية.

إن المجاعة الحقيقية ، المجاعة ـ المذبحة ، التي تعصف بحياة الآلاف ، بل عشرات الآلاف ، وأحيانا الملايين ، كمجاعة البنغال سنة 1943 التي خلفت ، في ظرف بضعة أسابيع أكثر من ثلاثة ملايين ضحية ، لم تمثل ، حتى في الماضي ، سوى كارثة استثنائية نسبيا ، يجدر بالمرء وضعها ، وبدقة ، في إطارها الزمني والمكاني . فهي تقع في مجالات جغرافية محددة، وفي أوقات تتفاعل فيها ، ظرفيا أو مصادفة ، عوامل حاسمة ذات طبيعة مناخية وأيضا سياسية. فمجاعة البنغال سنة 1943 وتلك التي حصلت في الفيتنام سنة 1945 ، نتجتا أساسا عن مضاعفات الحرب العالمية الثانية. وهي سياسية أيضا. فمجاعة الكامبودج مثلا كان قد تسبب فيها الخمير الحمر.

وكما تدل على ذلك بوضوح مقالات جون غالي ومشيل فوشير ، لم تشمل مجاعة إثيوبيا سنة 1984 - 1985 البلاد كلها بل بعض المناطق فقط ، تلك التي تأثرت في السابق بمجاعة 1975 ، والتي تعود مسبباتها إلى عاملي المناخ والسياسة معا .

لايمكن اعتبار مجاعتي إثيوبيا والساحل كنماذج على مجاعة ذات مدى كوني ، بل ، على العكس من ذلك كحالات هي اليوم استثنائية نسبيا. فعلا ، لقد خمدت ، في الوقت الراهن المجاعة الحقيقية ، المجاعة ـ المذبحة ، في أغلب بلدان العالم الثالث، على الرغم من الوجود القوي لسوء التغذية ، وذلك بفعل حذر أجهزة الدولة التي أصبحت تخشى العواقب السياسية التي قد تنتج عن هذه الكوارث.

وعليه ، تمثل مجاعتا إثيوبيا والساحل فضيحة ، لأن تفاديها كان ممكنا. فالمجاعة لاتسقط من السماء فجأة. فمن الممكن التنبؤ بها عدة شهور سلفا ، بالوقوف ، ولو عبر المراقبة الجوية ، على استحالة المحصول الزراعي المقبل ، نظرا لانعدام التساقطات في هذا الإقليم أو ذاك. وبذلك تبقى للحكومات إمكانية تنظيم المساعدات لأسابيع عديدة. وهكذا لايمكن تفسير وقوع الكارثة إلا بنوع من التهاون المقصود ، لأن المجاعة أصبحت اليوم وسيلة للتخلص بطريقة مستترة من بعض الساكنات " المشاغبة"، كرعاة الساحل ، أو القضاء على بعض حركات التمرد.

إن إثارة مايسمى بـ «المجاعة الكونية» والحديث عن أسباب عامة كالتزايد الديموغرافي أو التوزيع اللامتكافىء ، يخفي مسؤولية القادة الذين ساهموا في وقوع المجاعة ببلدانهم. بل

يجدر بنا التأكيد اليوم على إمكانية القضاء على المجاعات ، وأيضا الأوبئة ، في كل أرجاء العالم الثالث.

فالهند مثلا التي كانت تعيش في القرن 19 وبدايات الـ 20 تحت تهديد الجوع ، لم تشهد منذ الاستقلال مجاعة ـ مذبحة على الرغم من الانفجار الديموغرافي الذي رفع ساكنتها من 300 إلى 750 مليون نسمة. فقد أوضحت دراسة جون راسين الاستراتيجيات التي اتخذتها الحكومة الهندية لتجنب حدوث المجاعة ورهاناتها السياسية.

في إثيوبيا تزعم الحكومة أنها تقيم هي أيضا خطة جيو سياسية لمواجهة الجوع ،وذلك بنقلها للساكنات، مثل التيجري والوولو ، من المناطق الشمالية نحو الجنوب الأكثر رطوبة والأقل كثافة. وهو مشروع كان من المفروض أن يتم تدريجيا ، على مدى عقود من الزمن . والحال ، يعد برنامج " إعداد التراب" هذا ، وما يطرحه من مشاكل تقنية وسياسية ، عملية إجرامية ، لأن أجهزة الدولة قامت بإبعاد الأهالي المتضررين أصلا من الجوع والحرب الأهلية عن قراهم بمئات الكيلومترات ، لأجل إحكام مراقبتهم . هكذا تكون المجاعة ذريعة للتهجير.